ادريس أبو رندة
عبد العزيز السعود

« حزب الاصلاح الوطني » : وقائع مهملة

ليس بالامكان تلخيص تاريخ الحركة الوطنية بالشمال في بضع مقالات صحفية، لأن هذا التاريخ يطرح عدة اشكاليات وتساؤلات. إننا نعرف القليل عن نضال الشعب المغربي في الشمال، باستثناء بعض الحالات، والعلاقات على الصعيد المحلي ــ الاقليمي، ثم ارتباط الوضع في المنطقة بالأحداث في إسبانيا.

لقد كان من المفروض أن يشرع في نقد هذه المرحلة التي اتسمت بسيطرة الطبقات البرجوازية على التمثيلية الوطنية (على الصعيد العام) والتي اتخذت من الحوار السلمي والنضال المعادي للعنف أسلوباً لها في مواجهة الاستعمار الدخيل.

إن محاولتنا في هذا البحث ترمي الى توضيح بعض الأسس التي قامت عليها الحركة الاصلاحية في شمال المغرب، ممثلة في حزب الاصلاح الوطني ــ في إطار محتواها الايديولوجي ــ التنظيمي ومراجعة سلوكها الوطني في إطار تحالفها مع الحركة الفاشية في إسبانيا، محاولين التصدي لهذه المرحلة التي تهم خط السير الوطني العام نحو الاستقلال.

ومن المؤسف، وجود مظاهر ضبابية في التاريخ التنظيمي والايديولوجي للحركة (حزب الاصلاح)، وخاصة ظروف تأسس حزبها التي « **صادفت** » تمرد « فرانكو » ضد حكومة الجبهة الشعبية في إسبانيا.

إن مراجعة ونقد تاريخ الحركة الوطنية المغربية، عمل ملح ومستعجل، تقع مسؤوليته على الجيل الجديد. وهذا لا يعني استغلال الظروف السياسية الراهنة، بقدر ما يهدف الى تصحيح مضمونها وكشف « ضبابها ». إن هناك شهوداً عايشوا هذه المرحلة وساهموا فيها إما عن قرب أو عن بعد مازالوا على قيد الحياة، وهم في اعتقادنا أهم مرجع لهذه الفترة، لهذا فدورهم التاريخي يكمن في السماح، لأي باحث ــ بالاطلاع على الوثائق التي بحوزتهم لكي يتمكن من إزاحة الضباب عن مرحلة دقيقة من تاريخ الحركة الوطنية ــ الاصلاحية.

ونأمل أن يكون هذا البحث مساهمة منا في العمل النقدي ــ القيم ــ الذي كان قد بدأه « إبراهيم الخطيب » في مقاله « نقد الحركة الاصلاحية وأفقها الايديولوجي ».

ننشر في نهاية المقال مناقشة للموضوع

أولا : مسار الحركة الوطنية (في الشمال) في بداية الثلاثينات وارتباطها بالوضع في إسبانيا :

شهدت إسبانيا في بداية الثلاثينات معركة انتخابية تقرر فيها مصير الملكية. وتم إعلان الجمهورية بعد سقوط آخر حكومة يرأسها الملك « الفونسو الثالث عشر » ونجاح التحالف الجمهوري ــ الاشتراكي[1]. لقد كانت هذه الجمهورية ذات طبيعة بورجوازية إصلاحية، تتكون حكومتها من أحزاب يمينية محافظة وليبرالية، ومن بعض الاشتراكيين المعتدلين. وكان من الطبيعي أن يحتدم الصراع بين اليمين واليسار الذي رفض الجمهورية الليبرالية، وتجلى هذا في الصراع الاجتماعي « الطبقي » الذي عرفته إسبانيا خلال هذه الفترة التي تميزت بعدم الاستقرار.

وجاءت انتخابات 1933 فأعطت الفوز لليمين والوسط والراديكاليين. ومرت هذه الجمهورية البورجوازية بتجربتين برلمانيتين فاشلتين، ذلك أن اليمين عمل على إفشال التجربة الديمقراطية لما رأى أن الأحداث والتغييرات الجذرية أخذت تتجه اتجاها في غير صالحه وتجلى ذلك في التحالف الحكومي بين « لاسيدا » (LACEDA)، الحزب الكاثوليكي، والراديكاليين، ثم موقف اليمين المتطرف الممثل في الملكيين والفاشيين. وفي هذه المرحلة بدأت الاتصالات بين الرجعية الاسبانية وقادة الحركة الوطنية الاصلاحية لشمال المغرب.

ثم أتت أحداث « أستورياس » (Asturias) المعروفة بثورة أكتوبر 1934، فتأسست كومونة « أوفييدو » (Oviedo) التي قمعها « خيل روبلس » (Gil robles) زعيم حزب « لاسيدا »، وكانت القوات التي قمعت عمال مناجم أستورياس مكونة في أغلبيتها من المغاربة المجندين تحت إمرة فرانكو. وهكذا تم فعلا نسف المؤسسات الجمهورية وتمزيق الديمقراطية البورجوازية.

وقبيل هذه الفترة، بدأ في إسبانيا إعادة تنظيم اليمين المتطرف لمواجهة تصاعد قوة اليسار، وظهر من خلال الأحداث أن حزب « لاسيدا » هو الحزب الرئيسي المضاد للثورة، واستغل زعيمه منصبه كوزير للحرب، وبدأ يقرب إليه الضباط الفاشستيين والملكيين بمنحهم مناصب عسكرية مهمة، وفي هذا الاطار تم تعيين « فرانكو » رئيسا على القيادة العليا للجيش، وكان تنظيم اليمين يتم عن طريق استغلال العواطف الدينية للشعب الاسباني. وفي ظروف تهيىء المؤامرة اليمينية سافر وفد عن الحركة الوطنية بالشمال (عبد السلام بنونة، وعبد الخالق الطريس) حيث نزل الوفد ضيفاً عند بعض الشخصيات الفاشية الاسبانية « أصدقاء الوطنية المغربية »[2] وأعلن الوفد وقوفه ضد الديمقراطية في إسبانيا ورغبته في أن يقوم بها حكم أوتقراطي، ثم سلم لائحة المطالب الاصلاحية للحكومة الاسبانية معبرا عن أمله في أن يقوم « تعاون بين الحاميين والمحميين » وكان جواب الحكومة هو تأجيل هذه المطالب الى وقت لاحق واستحالة تحقيقها في هذا الظرف.

ورجع قادة الحركة الوطنية الى تطوان بعد أن أمدتهم الرجعية الاسبانية بمساعدات مالية مهمة لتنظيم الحركة في الشمال داخل حزب ذي بناء هيكلي عصري. وبدأ الطريس يصدر جريدة « الحياة »، وتحت نفس الاسم كانت تصدر جريدة (Lavida) الناطقة باسم الفاشية الاسبانية.

إن ما يدل على اقتناع الطريس ــ زعيم الحزب فيما بعد ــ بموقف الرجعية الاسبانية

وتأييده وتعاطفه مع الحركة الفاشية هو تعبيره عن قلقه وخوفه من التغييرات « الخطيرة » (في نظره) التي كانت تشهدها إسبانيا. وبالفعل جاءت انتخابات فبراير 1936 بإسبانيا لتؤكد قلق الطريس وأعضاء الحركة الآخرين من التطورات الحتمية لمسلسل الأحداث بإسبانيا، فكانت صراعاً بين اليمين واليسار. وبات واضحاً أن انتصار اليسار الممثل في الجبهة (الجبهة الشعبية) سيؤدي لا محالة الى ثورة أو الى ديكتاتورية عسكرية[3].

ومع صعود « الجبهة الشعبية » (Frente Popular) إلى الحكم تم الاتصال بشكيب أرسلان في « جنيف » قصد تهيء لقاء أحزاب اليسار بكتلة العمل الوطني للشمال وتوجيه الدعوة الى قادة الحركة الوطنية للحضور الى برشلونة، وقد تم هذا اللقاء مع أحزاب اليسار الاسباني الذين ضمنوا للوفد المغربي استقلال البلاد التام وقيام تعاون مشترك بين البلدين على قدم المساواة[4].

ولم يخلف هذا اللقاء أية نتيجة إيجابية بسبب تملص قادة الحركة من الحوار الذي كان قد بدأ منذ تلك الفترة. فالواقع يؤكد أن قادة الحركة الوطنية، لم يكونوا براغبين في صعود أحزاب اليسار إلى الحكم بإسبانيا، تلك الأحزاب التي كانت أغلبيتها تناهض الامبريالية.

هناك من وقف منذ البداية ضد التدخل الاستعماري في شمال المغرب كالحزب الاشتراكي العمالي، وكذا اليسار الجمهوري والكنفدرالية الوطنية للشغل (C.N.T)، وكان الحزب الشيوعي الاسباني قد طالب من رئيس الحكومة « لارغو كابا يرو » (الاشتراكي) نهج سياسة معتدلة تجاه المسألة المغربية[5]. ويدعي الشيوعيون أن « لارغو كابايرو » امتنع عن اتباع سياسة تحريض المغاربة ضد تمرد فرانكو بشمال المغرب وتعترف السيدة « دولوريس إباروري » (لاباسيوناريا) (La Pasionaria) (رئيسة الحزب الشيوعي) أن المبادرة الوحيدة في هذا الشأن كانت هي السفر الذي قام به الى الرباط « كارلوس باراييار » في محاولة يائسة لأرشاء الوطنيين المغاربة بالشمال بهدف الثورة ضد فرانكو[6].

فهل يبدو أن قادة الحركة الوطنية بالشمال لم يدركوا طبيعة التطورات السياسية التي أدت الى تفجر الحرب الأهلية الاسبانية ؟ وألم يكونوا على علم بأنهم أصبحوا طرفاً في المؤامرة الفاشية الاسبانية منذ سنة 1934 ؟ إن السلطات اليمينية كانت تدرك الأهمية الاستراتيجية للمنطقة الشمالية كقاعدة لإعلان التمرد الفاشستي في حالة وصول اليسار الاسباني الى الحكم. ولهذا بحثت عن « شريك » من أبناء الأرض. ولم لا ؟ ما دامت هناك نخبة احتكرت الوطنية لمصالحها الطبقية.

ثانيا : حزب الاصلاح.. مرحلة جديدة في العلاقات مع الفاشية الفرنكوية :

وجد الاصلاحيون المغاربة في ظروف الهجوم الفاشيستي للكتائب (الفلانخي) ضد الجمهوريين في إسبانيا فرصة يعلنون فيها عن رغبتهم في تأييد التحالف الكنسي ــ الفاشيستي لقاء الاعتراف بحزب الاصلاح الوطني كمنظمة وطنية سياسية تقف داخل السيطرة الاستعمارية في مواقع «المعارضة» فجاء ظهور الحزب في 18 دجنبر 1936، بعد بضعة شهور من إعلان فرانكو تمرده ضد حكومة الجبهة الشعبية . وقد تم تأسيس هذا الحزب بناء على اتفاق تم بين السلطات العسكرية المتمردة الفاشية وبعض قادة الحزب [8]، وهناك مذكرة

عسكرية صدرت في تطوان بتاريخ 29 دجنبر 1936، أعطت التعليمات للحكام العسكريين والمخابرات الاستعمارية لتشجيع المغاربة على الانخراط في حزب الاصلاح الوطني.

وبعد تأسيس الحزب تحت حماية ورعاية السلطات الفاشية المتمردة بدأ يعمل بكل حرية وتحت حماية القانون الاستعماري. ذلك أن فرانكو، لكي يدعم تمرده ضد الحكومة الجمهورية اليسارية، أحسن بضرورة خلق «حزب شقيق» كما أن عبد الخالق الطريس لم يكن يخفي إعجابه بالأحزاب الفاشية المتصاعدة في تلك الفترة، خاصة بعد زياراته المتعددة لاسبانيا والعلاقات الشخصية التي كانت تربطه بقنصل ألمانيا النازية الدكتور «ريشتر» بتطوان [9].

وأصبح الحزب يمارس نشاطه علنيا، حتى ان قاداته لم يكونوا أحياناً يحتاجون لطلب إذن من السلطات الاستعمارية لعقد أي تجمع، وأمست صحافته تعبر بصورة واضحة عن النهج المنحرف الذي سينهجه الحزب فيما بعد.

لقد دشنت مرحلة جديدة من العلاقات : إيديولوجية واقتصادية، نتج عنها نمو مصالح طبقة بجانب مصالح الاستعمار وبالتعاون معه في جو من التفاهم التام. كما دلت ممارسات الحركة الاصلاحية (النخبوية) على وعي جاد بمصالحها الطبقية، فكثيرا ما كانت تحتل مواقع سياسية تمتلك زمام المساومة من مركزها الطبقي وتساهم في قمع هيجان القبائل بعد الثلاثينات وقد سعت هذه الطبقة (النخبة المختارة) نحو النهوض بإصلاح اجتماعي؛ ورغم ذلك فإن الحركة ظلت واقعا مرفوضا من طرف شرائح اجتماعية متباينة رأت فيها حركة نخبوية، بل وجد من وجه لها انتقادات، كتنظيم أجنبي، وأتهم قادتها في تلك الفترة بميلهم للفكر الفاشستي. وهذا بارز في بعض مقالات جريدة «الحرية» (لسان حال حزب الاصلاح) التي كانت ترد على هذه الاتهامات.

وفيما يتعلق بنشاط الحزب، فإنه كان ينحصر بصفة خاصة في مدينة تطوان. ولم يستطع استقطاب سكان الريف بالرغم من أنه فتح بعض المكاتب في المناطق الجبلية. ويرجع ذلك الى هيكله الذي ينتظم في إطار شبه عائلي من جهة، ومن جهة اخرى لمشاركته في مؤامرات استعمارية ضد أهل الريف و«جبالة»، وتحالفه مع بعض قواد الاستعمار أمثال القائد عبد القادر والقائد عمر وشن.

وكل من تتبع نشاط الحزب يجده دائما يعمل داخل استراتيجية فرانكو في معاداته لليسار، وعدائه للدول التي لم ينل تأييدها، وكان هذا النشاط موجهاً بالدرجة الأولى ضد فرنسا، وكأن شمال المغرب لم يكن مستعمرا. وقد قام الحزب بتنظيم تجمع شعبي سنة 1937 للاحتجاج على سياسة فرنسا القمعية أثناء اعتقال الوطنيين بالجنوب، والتنديد بسياستها البربرية، كما ساهمت صحافته بحملتها في إدانة الاستعمار الفرنسي. ولم يقتصر ذلك على الصحافة فحسب بل حتى في إذاعة تطوان وإذاعة أشبيلية، وكان ذلك يتم بإيعاز من حكومة فرانكو.

والذي يهمنا في هذا العرض هو العلاقات التي ربطت حزب «الاصلاح الوطني» بحزب «فلانخي» (الكتائب) الاسباني. فإذا حاولنا المقارنة بينهما نجد التشابه واضحا في بنائهما الهيكلي وفي التنظيمات الموازية لهما. فبخصوص التنظيم نجد فرقة «فتيان الحزب» وهي مليشيا ذات زي شبه عسكري، واستعراضاتها تكون على الطريقة العسكرية والتحية برفع اليد مبسوطة على النمط الفاشي تم لباس القائد العام الخ... بل نجد ايضا أن الحزبين كانا يستندان

على نفس المعطيات الايديولوجية وبالدرجة الاولى الوطنية ــ الدينية، كالدعوة إلى الروحانيات، واحياء أمجاد الماضي الغابر. لقد دعا حزب الاصلاح إلى مغرب المرابطين والموحدين، أما حزب «فلانخي» (الكتائب) فكان يدعو إلى إعادة بناء إسبانيا «الملوك الكاثوليك».

ومن الناحية الثقافية عمل كل من الحزبين على فتح مراكز ثقافية لتعليم اللغتين الايطالية والألمانية. أما بالنسبة للاعلام فنجد الجرائد التي كان يصدرها حزب الاصلاح لم تكن إلا ترجمة للجرائد التي كان يصدرها حزب «فلانخي» la vida (الحياة)، la nación (الأمة)، LA libertad (الحرية).

ففي ذلك الاطار تم تطوير إيديولوجية الحزب، وكان كل ذلك يوحي بأن هناك خطة لمناصرة الفكرة الفاشيستية، فضلا عن العناصر الشخصية المرتبطة «بالزعيم القائد» وإذا كان الأمر هنا يتعلق بحالتين مختلفتين، فإنهما مرتبطتان بعامل الممارسة الحزبية والسياسية، وكلاهما نجح : حزب «فلانخي» نجح بالعناصر العسكرية الفاشية وفرض إيديولوجية على الدولة، أما حزب الاصلاح فقد نجح في التعايش مع السلطات الاستعمارية وقاعدتها الايديولوجية. وأصبح التعامل بينهما ذا مصادر متعددة، سعيا إلى إقامة تعاون اجتماعي «يعود بالمنفعة على الأمتين : الاسبانية و المغربية» (الطريس).

والأحداث السالفة تدل على أن فرانكو استعمل حزب الاصلاح لظرف سياسي معين، هو ظرف الحرب الأهلية الاسبانية، كما أن حزبي «الاصلاح»و«فلانخي» رأيا في فرانكو «منقذ» الأمة الاسبانية من الشيوعية.

وإذا حللنا تلك المعطيات الأنفة فإننا ــ ولاشك ــ سنستخلص أن حزب الاصلاح كان حزبا فاشيستيا وإن لم يدرك بعض أتباعه هذه الظاهرة. فهو يمثل مصالح طبقية محدودة داخل المجتمع المغربي بالشمال (تطوان بالخصوص)، ويحافظ على مصالح الرأسمالية الاستعمارية.

ثالثا : المعطيات الايديولوجية للحركة الاصلاحية (حزب الاصلاح الوطني):

يمكن اعتبار الحركة الوطنية في الشمال مرحلة في السير الوطني، لها أسلوب في التفكير، وسلوك في الممارسة، ويمكننا طرح هذا الفكر وهذا العمل من خلال تجميع بعض الملاحظات.

الملاحظة الاولى : الصبغة الوطنية الدينية : كانت الحركة في الواقع تحاول أن تستغل العواطف الدينية لدى الجمهور كأداة لاستقطاب الاهتمام الوطني. وهذا العنصر الديني جعل الكثيرين ممن كتبوا عنها يجهلون طبيعتها الحقيقية وأصولها الفاشية.

ان تصور الوطنية عند زعيم الحركة يختلط الى حد ما بتصوره للدين «الوطنية والدين شيئان لا محيد لأحدهما عن الآخر. فالوطنية للدين تخدم والدين للوطنية السامية يؤهل»[10] وعلى أساس هذا المفهوم كان حزب الاصلاح ينظم رحلات الى جبل العلم لزيارة ضريح المولى عبد السلام بن مشيش. ولقد خصصت صحف الحزب عموداً من صفحتها الاولى للوعظ والارشاد والدعوة إلى تفضيل الروحانيات والرجوع إلى سيرة السلف الصالح. وكان هذا عائقاً أمام نمو الوعي الشعبي ضد المستعمر. والتخلي عن كل ما من شأنه أن يذكي الصراع الطبقي الذي كان في نفس الوقت صراعاً ضد المستعمر. وعمل الحزب على توجيه الجماهير توجيها

كان في صالح الاستعمار والطبقات المتحالفة معه.

إن إيديولوجية حزب الاصلاح الوطنية الدينية، كانت تعتمد على الفكر الفاشيستي كأساس موحد للعناصر المشتتة لبعض قطاعات البورجوازية التقليدية، والتي كانت تجتمع على ظاهرة التمركز وهو جانب منظم وموحد لطبيعتها المتعددة.

وإذا كان حزب الاصلاح الوطني لا يفرق بين الدين والوطنية، فإن حزب «فلانخي» الاسباني أطلق اسم الحرب الصليبية (la cruzada) على الحرب الأهلية الاسبانية، كما أن كل من انخرط في صفوف الحزب « الجيش المنقذ للوطن، هو في نفس الوقت راهب وجندي وصليبي» (أوربا إسبانيا 1936.8.6)، والفرق بينهما هو الدين

الملاحظة الثانية : العنصر «الايديولوجي ــ الزعيم»

إذا أخذنا بالتحليل كل النزعات الفكرية والسياسية المتواجدة داخل حزب الاصلاح، سنخرج بملاحظة أساسية كان لها دورها في تطوير إيديولوجية الحزب، وحين يتعلق الأمر باتجاهات «مختلفة» داخل الحركة فإننا نعثر عليها مرتبطة بحكم موقعها الطبقي بعوامل مشتركة، والعامل الأساسي لهذا الارتباط هو«العنصر الايديولوجي ــ الزعيم»[11] الذي كان يوحد في ما بينهما.

هناك عناصر شخصية مرتبطة «بالزعيم القائد»و«الرئيس الملهم»، وتحليل هذه العناصر هو عمل حاسم لفهم الممارسات السياسية والحزبية ذات النزعة الديكتاتورية «الشعب المغربي غير جدير بالديموقراطية» وفكرة الحزب الواحد «لا يعقل أن يوجد في الأمة حزبان، ولا يسمح ضمير الأمة بوجود حزب أخر» (الحرية 1937/8/23).

إن العناصر المرتبطة ببعض شخصيات الحزب، وخاصة «الرئيس» هي تعبير عن الأزمة السياسية الحادة للطبقات المسيطرة اقتصاديا تحت ظل الحماية الاسبانية والعاجزة عن تحويل نزعتها المهيمنة ذات الطبيعة المتعددة. فالعناصر التي كان يتكون منها الحزب كان لها استقلال ذاتي، وهي مشتتة، منها من كان يحتل مناصب وزارية في الحكومة المحلية، ومن يشغل مناصب في الادارة الاستعمارية، ومن يقوم بالتوجيه الديني داخل السياسة الاعلامية الاستعمارية «إننا في ميدان العمل الوطني كأفراد بالنسبة للمسؤولية، وإن كانت لنا صفة حزبية .. قد تميل بنا الظروف إلى الاختلاف في وجهة الأنظار» (الحرية 1941.3.3).

وعبر مراحل مر بها حزب الاصلاح الوطني نجد الطريس «الزعيم» وحده في الحزب، ويقوم بجميع الأنشطة دون مساعدة مسؤولين في الحزب، وفي فترات نجد تلك العناصر تتوحد وتنصهر في كتلة واحدة، وهذا راجع لما يسميه «سيرخيو فيلار» إلى «العنصر الايديولوجي ــ الزعيم» الذي له القدرة على تحويل «أوامره إلى أفكاره».

ففي الحالة الايطالية نجدأن الزعيم يسبق الايديولوجية وهو الذي يساهم في بنائها الهيكلي، كما أننا نجد في الفاشيستية الاسبانية والفرانكوية العنصر «الايديولوجي ــ الشخصي» «الزعيم» له نفس الدور والأهمية كما في الفاشية الايطالية والنازية الألمانية. إن كل من قرأ كتابات الطريس يجده متأثرا بالزعيم الفاشيستي الاسباني «خوسي أنطونيو دي ريفيرا» كذلك نجده متأثرا بفكرة النخبة الأرستقراطية والصفوة المختارة، التي يجب أن تقود و لا تقاد» والتي يجب أن تحتكر الزعامة والنضال. كما أن فكر الطريس كان يقوم على تمجيد السلف وإعادة

أمجاد الأمة. وتفضيل طبقة اجتماعية على باقي الطبقات الأخرى، ومن الأفكار التي أخذها عن الفاشية الاسبانية، فكرةاعتبار العائلة الخلية الأولى للمجتمع في تنظيمه الحزبي، مثل التمثيل في الكورطيس الفرانكوي الذي كان يقوم على عضوية العائلات الأرستقراطية والبرجوازية والنبلاء وغيرهم...

الملاحظة الثالثة : النضال المعادي للعنف :

لم يكن حزب الاصلاح الوطني يقبل في صفوفه دعاة العنف ضد الاستعمار، فسلوك طريقة النضال السلمي مكن البورجوازية الاصلاحية من الحفاظ على الامتيازات المحدودة التي حققتها حتى ذلك الوقت، كما أن الحياة الاجتماعية الأنيقة والموقع الطبقي لقادة الحركة وعلاقتهم بالادارة والمصالح الاستعمارية جعلهم يرفضون العنف كأداة سياسية لتحرير البلاد، ومن ذلك عزل البادية عن النضال الحقيقي، ووقوف الحزب كعائق لتطور الكفاح المسلح « ولا تفهم هذه القبائل في الثورة إلا أنها حاملة السلاح فلا تعقل معنى الثورة الاصلاحية ولا التهذيبية » (الحرية 1939.1.3). بل ذهب بعض أعضاء الحزب الى حد القدح والتهديد بثورة المغاربة ضد الاستعمار « وإنني أقسم أن هؤلاء المغاربة القساة المتمردين العصاة لا ينفع فيهم الوعظ مشافهة فضلا عن الارشاد بالمقالات.. بل هم قوم لا يرضون بالنظام والطاعة إلا تحت الضرب الشديد والعذاب الأليم.. هذه هي حال الشعب المغربي الخبيث »(الحرية 1939.11.3). ونتيجة لهذا الموقف السلبي المسالم فإن الاضراب والتظاهر يعتبران عملا مقيتا «محرما على أنصار الحزب القيام بأي عمل يخالف البرنامج المقرر وأن يبتعدوا عن تنظيم كل أنواع المظاهرات» (الحرية 1938.11.11)، هذه العقلية كانت حاجزا أمام الجماهير للالتحاق بصفوف الحزب، وكل هذا كان يستند على معطيات إيديولوجية نجدها بارزة في خطب الطريس وكتاباته الصحفية والادبية الملونة بالعبارات التي كانت تستعمل في ذلك الوقت في صحافة الفاشية الاسبانية. وهكذا أصبح واضحا في أواخر الاربعينات «أن الحزب لن يقر أساليب العنف والاعتداء، ويفضل سلوك طرق السياسة والاقناع» وكان خير ما ينصح به أنصاره فيما بعد «الصبر والاعتدال». لقد أنجزت البرجوازية الاصلاحية مهامها في عرقلة نمو الحركة الثورية المسلحة ضد الاستعمار. وأجهضت الروح الثورية التي يمتاز بها أهل الريف، واصبحت تشكل الخط الستراتيجي الاصلاحي الذي لم يكن هدفه محاربة الاستعمار بقدر ما كان يهدف تصحيح عيوبه وتحسين ظروف وجوده.

الملاحظة الرابعة : الاعتماد سياسيا على أسلوب «المطالب» وتقديم العرائض

تميز موقف الوطنيين الاصلاحيين من أعمال العنف التي تعرض لها العمال المغاربة في تطوان أثناء المظاهرة التي قاموا بها يوم 5 ماي 1931 دفاعا عن مطالبهم العمالية، بالسكوت وغض الطرف عن وحشية الجيش الاستعماري. إن اهتمام هؤلاء (الاصلاحيين) الأساسي كان هو التفاوض مع السلطة الاستعمارية لأجل القيام بالاصلاحات الممكنة والمنسجمة مع ميثاق الحماية. وفي هذا الاطار سلم عبد السلام بنونة بتاريخ 6 يونيو 1931 ورقة تتضمن بعض المطالب الاجتماعية الى رئيس الجمهورية «الكالاثامورا» (ALCALA ZAMORA)وطالب بعد تحية

الجمهوريين بقيام «تعاون بين الحامين والمحميين.. متحدين في مصلحة واحدة تجعل من الجميع عائلة واحدة..»[12]. وفي نوفمبر 1933 جاء الى تطوان الرئيس «ثامورا» يزور المنطقة السعيدة ويتفقد شؤون أهلها فزمر المغرب له، حتى من فوق المآذن وقدم لائحات بمطالب الأمة[13] 13 تتعلق بانتخاب مجالس بلدية وإنشاء مجلس عام للشورى وضمان حرية النشر والصحافة والاهتمام بالتعليم وجعل اللغة العربية أساسية، وتخصيص اعتمادات للفلاحين في ميزانية الحكومة ، بيد أن هذه المطالب لم تلب لأسباب تتعلق بطبيعة الحكم آنذاك في إسبانيا.

وفي سنة 1936 أوفدت الكتلة الوطنية وفدا إلى مدريد برئاسة عبد الخالق الطريس للاتصال برجال إسبانيا وهيئاتها والتذاكر معهم «فيما يعود بالمنفعة للأمتين».

ولما بدأ التحرك الفاشيستي ضد حكومة «الجبهة الشعبية» في إسبانيا بعد ثلاثة أشهر من فوزها في الانتخابات، أخذ الحذر يطبع مواقف الحركة الاصلاحية، الى ان أضحى تحالفها واضحا مع حركة فرانكو ضد الجمهوريين. وعندها بدأ التملص من الحوار الذي كان قد جرى بين الحكومة الوطنية الاسبانية والاصلاحيين. «إن الجهاد الوطني يلزم ألا يسمع من جديد نغمة تحالفه مع «الحمر» ضد الحكومة المؤقتة، لأنها نغمة بليدة يعلم المسؤولون من رجال الحكومة أنها محاطة بظروف تجعل قبولها مستحيلا من جهتنا » (الطريس). الظروف هي تحالف حزب الاصلاح مع فرانكو الضابط المتمرد والذي أسس حكومة «بورغوس» الوطنية ضد حكومة مدريد، حكومة الجبهة الشعبية.

وفي سنة نصر الفاشيين وقف الزعيم الوطني خطيبا فنوّه باسم فرانكو وباسم المقيم العام «بايبدر» (Beigbader) وأثنى على سياستهما. وفي نفس الوقت كانت اللجنة التنفيذية لحزب الاصلاح تقدم إلى المقيم العام نسخة من المطالب. فيصرخ بايبدر قائلا : «إنني مغتبط بهذه المطالب ... فحزب «إستقلالي» كحزبكم يلزم ألا يفكر أولا في الاستقلال، بل يفكر في مؤهلات الاستقلال وادخال الاصلاحات اللازمة» (الحرية 1938.3.10).

والواقع أن الجنرال فرانكو كان يعي مستقبل تحالفه مع البورجوازية الاصلاحية ، ويبارك أسلوبها في «النضال» الذي يعتمد سياسة المطالب : «إنه لمما يسرنا أن تصبح إسبانيا حليفة لنا والطريق هو تدشين عهد جديد للتعاون الحق على أساس مطالبنا العادلة» (الحرية 1938.6.16). وتمشيا مع السياسة الجديدة التي رسمها فرانكو لحكومته، جاءت وعوده لعبد الخالق الطريس «إن الوعود التي وعدتكم بها ليست وعودا جوفاء..وعما قريب تصبح حقائق، وإسبانيا مصممة على مساعدة المغرب ماديا ومعنويا» (الحرية 1939.9.10).

رابعا : الدعاية الاصلاحية والعمل في إطار الاستراتيجية الفرانكوية

مع بداية الحرب الأهلية الاسبانية شهدت مدينة تطوان مظاهرة جماهيرية ضخمة كادت أن تحبط تمرد القوات الفاشية التي إنطلقت من الشمال. وقد خلفت هذه المظاهرة عددا من الضحايا، إلا ان تدخل الوزير «الصدر» أحمد الغنمية ممثل الاعيان والاقطاع في الحكومة الخليفية أوقف المد الشعبي ضد السلطات الفاشية، وساهم حزب الاصلاح بدوره في تهدئة هيجان الجماهير. وفي نفس الوقت كان يتم تنفيذ حكم الاعدام بالثكنات العسكرية

في مجموعة من ممثلي الاحزاب اليسارية الاسبانية بتطوان الذين اتهموا بتحريك وتحريض الجماهير (ومعهم بعض المغاربة).

وبعد أيام جاء قرار الحكومة المحلية بتجنيد المغاربة الفقراء والفلاحين في صفوف الجيش الاسباني الفاشيستي. بتزكية فتوى أصدرها الفقيه التزكاني[14] وبعض رجال الدين من عملاء الاستعمار، كما غادر تطوان عدد من المبعوثين نحو قبائل الحدود بين المنطقتين لأجل تجنيد بعض رجالها وتدعيم قوات فرانكو مستندين في سعيهم على إمكانية قيام حرب تحريرية تمكن من تحقيق وحدة المغرب واستقلاله[15] في حين كان أحد القادة الاصلاحيين يعلن من إذاعة «سلامانكا» عن مساندة فرانكو في إطار الدعاية الاصلاحية ويطلب من المغاربة القتال بكل بسالة الى جانب فرانكو.

ولاقت هذه الدعاية الفاشية رد فعل قوي عند بعض المجندين المغاربة الذين ثاروا ضد هذه الحملة المضللة لصالح الفاشية الفرانكوية، إذ توضح لعديد منهم تورطهم في مؤامرة التمرد ضد حكومة «الجبهة الشعبية» : أخيرا بدأ المغاربة يفهمون ويتقدمون إلى الأمام — فارين من جيش فرانكو — ويرفعون بنادقهم ويصيحون عاش الرفيق «أثانيا» عاش الرفيق «أثانيا» (Azaffia) وينضمون الى الجيش الجمهوري الشعبي، وتكونت منهم كتيبة تحت قيادة الشاب المغربي المناهض للفاشية مصطفى بن قاق الذي وجه نداء الى أهل الريف للتمرد ضد الضباط الفاشيين»[16] وهذه شهادة تبين عن مقدار وعي الطبقات الكادحة بالخطر الفاشيستي الامبريالي.

ولكن لكي يضمن فرانكو مزيدا من الدعم والتأييد أمر المقيم العام «بابيدر» بإعطاء الحكومة الخليفية والوطنيين الاصلاحيين بعض الوعود والشروع في تنفيذ بعض الاصلاحات «واليوم يقدم الزعيم فرانكو لكم وفاءه بالوعود : عشرة ملايين بسيطة للأشغال العامة، العفو العام، توسيع التعليم....» وأصبح الطريس يتسلم مساعدات مالية هامة من السلطات الاستعمارية ومن قنصل ألمانيا النازية بتطوان الذي كانت تربطه به علاقة شخصية[17].

وهكذا أصبح في يد فرانكو تنظيم سياسي خاص الحساسية لتلبية الحاجة السياسية والاقتصادية التي فرضتها ظروف الحرب الأهلية الاسبانية، ذلك أن فرانكو كان يؤمن بنظرية «كانوباس» (canovas) التي تقول : «أن الذي يحكم ضفة من البحر الأبيض المتوسط يستطيع أن يحكم الضفة الأخرى». وكان هذا عند «كانوباس» بمثابة قانون تاريخي لأنه كان يعتبر أن حدود إسبانيا الطبيعية توجد عند حدود الاطلس».

لقد أصبحت منطقة الشمال قاعدة تموين قوات فرانكو ودعمها في الحرب الأهلية، وبدأت ألمانيا ترسل المعدات الحربية ، وكانت بعض طائراتها تنطلق من مطار «سانية الرمل» بتطوان والسهل الأصفر بكتامة لقنبلة جنوب إسبانيا. ومع الدعم العسكري الألماني بدأت بعثات وكلاء المخابرات السرية الألمانية التي تواجدت بوفرة في المنطقة الخليفية، كما حضر إلى تطوان تقي الدين الهلالي الذي كان يعمل في إذاعة برلين في برامجها الموجهة للدول العربية. وكانت الادارة النازية قد أوفدته إلى تطوان لمساعدة حزب الاصلاح والقيام بالدعاية للنازية في الصحف التي كان يصدرها الحزب بالمدينة، وأيضا للعمل بجانب قادة حزب الاصلاح الوطني

على تنظيم الحزب وبناء هيكله.

ولما كان الاصلاحيون أظهروا استعدادهم العملي في مساعدة فرانكو، ونجاحهم في تهدئة الأوضاع الداخلية وتحويلها لصالح الفاشيستية الاسبانية صدر مرسوم بتاريخ 17مارس1937 تم بموجبه تعيين الطريس على رأس وزارة الأحباس، كما عينت حكومة فرانكو قنصلا مغربيا لها بمدينة جدة هو محمد أنقار[18]. وفي شهر ماي من نفس العام استقبل فرانكو وفدا عن الحجاج المغاربة لدى عودتهم بإشبيلية، وألقى فيهم كلمة جاء فيها : «في هذه اللحظات الخطيرة بالنسبة للعالم، في الوقت الذي ظهر فيه خطر يهدد الجميع، وهو خطر رجال لا إيمان لهم، يجب على جميع المؤمنين أن يتحدوا لمواجهة من لا إيمان لهم. وأنتم المسلمون أحسن من يفهم ويعي هذا الكفاح، وعندما ستكبر زهور السلام سنمنحكم أحسن الزهور»

إن الجنرال فرانكو كان يدرك «التهديد الوطني» لنجاحه في الحرب الأهلية، والطريق هو تنفيذ بعض المشروعات لصالح البورجوازية الوطنية التي كانت تسيطر على النشاط السياسي : «إذا أردتم أيها الاسبانيون المحافظة على صداقة المغاربة.. ساعدونا كما ساعدناكم» (الحرية 1937.9.20).

وهكذا تم إنشاء الشركة الصناعية الاسبانية المغربية (أسندت رئاستها للطريس)، والشركة الكهربائية الخاصة بالأحياء التقليدية المغربية، فأصبحت بجانب شركة «النصارى» شركة المسلمين ، فضلا عن امتيازات ذات صبغة ثقافية مثل تدريس اللغة العربية وجلب أساتذة من الشرق العربي، وإرسال بعثات الطلاب من أبناء البورجوازية التقليدية للشرق (لم يتحمس كثيرا الاصلاحيون لارسال بعثات إلى جامعات إسبانيا)، كما استمر إرسال الحجاج على متن باخرة «الماركيس دي كومياس» والتي سميت «بالمغرب الأقصى».

وبعد توطيد دعائم حزب الاصلاح الوطني أصبحت قيادته مندمجة في الأوساط الاستعمارية، تربطها بسلطات الحماية علاقات وطيدة : إديولوجية ومالية.

وكان نشاط الحزب دائما موجها في إطار الاستراتيجية الفرانكوية. ففي سنة 1937 نظم الحزب تجمعا بمسرح اسبانيول في تطوان حضرته بعض شخصيات حزب «فلانخي» (الكتائب الاسباني) إلى جانب قادة حزب الاصلاح، وتم أيضا لقاء بمركز جمعية الطالب المغربية بين الطلبة الاسبانيين الفاشيستيين والطلبة الاصلاحيين، وتناول الكلمة في هذا التجمع الطريس و «بدروليون» (pedro leon) الزعيم الفاشيستي الاسباني الذي أدان أحزاب الجبهة الشعبية ووصفها بأعداء وحدة المغرب وأكد الطريس أن المغرب لن يستطيع العيش بدون إسبانيا، وهي التي ستحقق له حريته ووحدته.

وبعد ثلاث سنوات، مع نهاية الحرب الأهلية الاسبانية، نشرت جريدة«بريد الصباح» بتطوان سيرة بطل «الثورة» (فرانكو) لأنه أقرب الناس إلينا جغرافيا، ولأنه نبغ في المغرب وقام فيه بحركته الشهيرة.

إن الطابع الطبقي ــ النخبوي الذي تميز به البناء الهيكلي للحزب جعل منه ركيزة إيديولوجية للنظام الفرانكوي الاستعماري. ومقابل هذا كان الحزب يحصل دائما على إمتيازات لصالح الطبقة التي كان يمثلها. وأول عمل قام به الاستعمار الاسباني هو استقطاب العائلات الغنية وتنظيمها داخل حزب «وطني» اصلاحي، كأداة للتوجيه السياسي الفاشي للحركة

الفرانكوية مقابل مصالح مادية وسياسية، فأصبحت الطبقة البورجوازية من ملاكي العقارات والتجار الكبار التي تكونت على أساس أرستقراطي رجعي تضمن للوجود الاستعماري الاستقرار والاستمرار.

خامسا : وقوف الحركة الاصلاحية بجانب الفاشية والنازية :

مع نهاية الحرب الأهلية الاسبانية التي دامت ثلاث سنوات (36 ــ 39) أقيم احتفال كبير في جميع مناطق الشمال بمناسبة النصر الذي حققته الفاشيستية الاسبانية على الجبهة الشعبية التقدمية في إسبانيا. وعقد حزب الاصلاح الوطني عدة تجمعات قدم فيها التهاني للجنرال فرانكو وحزب الكتائب الاسباني.

والسؤال الذي يتبادر إلى ذهننا هو : هل كان طبيعيا ان تقف الحركة الاصلاحية في الشمال إلى جانب الفاشيستيين خلال الحرب الأهلية الاسبانية ؟ لماذا تملصت من الحوار بعد أن أقدمت عليه مع أحزاب اليسار ؟ إن كلاما كثيرا يمكن أن يقال بخصوص هذا «التكتيك» الذي انتهجته الحركة الاصلاحية، والذي يرمي في النهاية إلى تحقيق «الاستقلال» بأي وسيلة، غير أننا نخطيء كثيرا حين لا نراجع هذا التكتيك ذاته مراجعة طبقية[19].

لقد كان تفجر الحرب الاهلية الاسبانية إيذانا بحتمية المسار الذي سوف تتخذه الحركة الاصلاحية بوقوفها إلى جانب الحركة الفاشيستية التي كانت تساندها الكنيسة والاحتكارات الأجنبية فضلا عن الأنظمة النازية والفاشية في ألمانيا وإيطاليا. إن التبرير الذي قدمه زعماء الحزب ينطوي على عداء مرير للحركات التقدمية الديمقراطية، ولكل فكرة تدعو إلى المساواة في الثروة، يقول الطريس في هذا الصدد : «دفع المغاربة الى الكفاح (بجانب فرانكو) الخوف من مس عواطفهم الدينية إذا استفحل أمر الشيوعية وطغى على هذه البلاد.. لأن المسلمين بطبيعة أحوالهم أعداء ألدّة لفكرة التساوي في الثروة» (الحرية 1939.3.26). ويكمن هذا العداء للشيوعية بالنظر الى إيديولوجيتها القاعدية المعادية للثقافة السلفية الارستقراطية التي يمثلها قادة الحركة الاصلاحية، فالطريس كان يرى أنها «أسد مفترس»، وربما لنفس السبب كان الطريس لا يعترف بوجود شيء إسمه المقاومة الفرنسية ضد النازي[20]. ورغم الانتقاد الذي وجه للحركة الاصلاحية من بعض الأقطار الاسلامية بسبب وقوفها الى جانب الحركة الفاشية، فإن الطريس كان يعتبر تلك الحملات «كلها نتيجة أجرة أو رشوة من فرنسا أو من الشيوعية نفسها» (الحرية 1939.3.26).

لقد مالت الحركة الاصلاحية، انطلاقا من تبنيها للفكر السلفي ومقولات بعض أقطابه، الى الاقتناع بامكانية قيام «وحدة اسلامية» ثم تطورت هذه الطموحات ــ خاصة بعد أحداث تركيا ــ ضمن إطار القومية العربية، فكانت زيارات متعددة لأطر الحزب نحو المشرق العربي، وتم فتح دار المغرب بالقاهرة ومشاركة وفود الحزب في اجتماعات اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية، وفي المؤتمر البرلماني للدفاع عن فلسطين.... ولقد كانت المسألة بالنسبة للطريس الزعيم وللمثقفين الاصلاحيين البورجوازيين مسألة إستعادة الذات. كما وجد الاصلاحيون سندا مشجعاً في الحكومة الاستعمارية للسير نحو تحقيق هذه الطموحات والتي اتخذتهم «كحصان طروادة». وذلك في إطار مساعدة إسبانيا للخروج من العزلة الدولية

المفروضة على نظام فرانكو. لقد رأت اسبانيا في قادة حزب الاصلاح أداة لتنشيط العلاقات مع العالم العربي والاسلامي زيادة على أن الخط الاستراتيجي لهذه السياسة كان يهدف الى خلق متاعب لفرنسا.

وقد لعبت صحافة الحزب وإذاعة تطوان، فضلا عن تمكنه من استعمال إذاعة إشبيلية، دورا رئيسيا في تقوية موجة النقمة والاحتجاج على سياسة فرنسا في المنطقة الجنوبية.

يقول الطريس في تعقيبه على كتاب «كاميلو بروسيا» (حول السياسة الخارجية لإسبانيا) «إن الكاتب قد عبر عن رأينا.. فنحن ندعو إسبانيا الى اعتبار معاملة هذه المنطقة بالحسنى احساناً الى العالم الاسلامي أجمع ونحن على استعداد دائم لتقوية علاقتها بالأمم الاسلامية وبذل كل ما في وسعنا وتحت تصرفنا لجعل نفوذها الروحي بين المسلمين يقوى يوماً بعد يوم» [الحرية 1939/12/19].

فهل يمكن تفسير موقف الحركة الاصلاحية من حكومة الجبهة الشعبية وانحيازها لجانب الفاشية الاسبانية بأنه خاضع للسياسة الدولية ؟ وهل نتجت بسبب الضغوط الممارسة من طرف الدول ذات الأنظمة الفاشية التي كانت ترقب بعين الحذر خوفاً لما اتجهت الأحداث في صالح اليسار الذي رأت فيه تهديدا لمصالحها الفاشية ؟ والأمر هنا يتعلق «بالتهديد الشيوعي» في منطقة البحر المتوسط، وفي هذا الاطار جاءت اتصالات الفاشية الايطالية بالفاشية الاسبانية وهذه الأخيرة هي التي أملت موقفها على قادة الحركة الاصلاحية.

إن العداء الشديد لفرنسا الاستعمارية والشيوعية «المفترسة» ومؤازرة الحركة الفرانكوية الفاشية في نفس الوقت جعل «الوطنيين الاصلاحيين» يكشفون عن انحيازهم لألمانيا النازية، فمع بداية الحرب العالمية الثانية أقام حزب الاصلاح احتفالا كبيرا بالنصر الذي حققته قوات «هتلر» سنة 1940[21] ونظمت مظاهرة ضخمة قادها الطريس وبنونة والتهامي الوزاني وبعض شخصيات حزب «فلانخي» (الكتائب الاسباني) الى باب قنصلية ألمانيا النازية بمدينة تطوان، حيث أحرق هناك علم فرنسا[22] وجند الحزب بعض المغاربة في «اللواء الأزرق» الذي كان يضم القوات التي أرسلها فرانكو من المتطوعين الفاشيستيين للقتال بجانب قوات هتلر.

وفي سنة 1941 هيأ القنصل الألماني بتطوان والمخابرات النازية سفر الطريس على رأس بعثة حزبية الى برلين[23] للاتصال بالمسؤولين النازيين وإقناعهم بضرورة تحرير المغرب بعد هزيمة فرنسا وقد كان لهذه الخطوة الجريئة وقع سيء في نفوس الفرنسيين الذين أضمروا له العداء وحكموا عليه سنة 1944 بالاعدام غيابيا في المحكمة العسكرية بمكناس»[24].

فهل حاول الطريس أن يلعب بالورقة الألمانية ضد إسبانيا ؟ ولكن حاول أقلم يدرك أن مساندة فرانكو بالنسبة لهتلر كانت عند هذا الأخير أكثر أهمية من دعم الوطنيين الاصلاحيين، ثم ألم يكن الطريس في هذا السفر أداة لسياسة فرانكو الخارجية. إن «الكاوديو» فرانكو كان يحلم بتحقيق أطماعه التوسعية، فسياسة فرانكو الاستبدادية وتكوينه الاستعماري كانا سيذهبان به لا الى رفض استقلال المنطقة فحسب بل الى إلحاق المغرب نهائيا بشبه الجزيرة الايبيرية، بعد طرد فرنسا من جنوب المغرب، ذلك أن اعتقاد فرانكو كان هو أن النازية ستقضي على الاحتلال الفرنسي، وكانت الشروط التي وضعها فرانكو والمذكرة التي سلمت الى سفير ألمانيا بمدريد «ستوهرير» للدخول بجانب ألمانيا في الحرب والتي حررت بقلم «خوسي ماريادي أريلثا» و «فرناندو دي كاستيا» ذات أهداف واضحة[25] وهي طرد

الاستعمار الفرنسي من الجنوب واحلال الاستعمار الاسباني محله. وجاء في المذكرة أن غاية إسبانيا هي غاية إنسانية «إسبانيا واحدة تساعد مغربا واحدا».

هوامـش :

1) A. Kramer - Historia 16 n° 12 Abril 1977 العنوان : إسبانيا استيقظت جمهورية.
2) الطوبس : صور من حياته. جمعية الطالب المغربية ــ تطوان
3) Xavier T. Historia 16 n° 10 Febrero 1977 العنوان : انتخابات الجبهة الشعبية فبراير 1936.
4) Martin (M) El Colonialismo Espa ol en Marruecos 1860-1956 - Ruedo Ibérico Paris1973
5) Stanley (P) La Revolucion Espanola Argos Vergara 1977
6) Dolares Ibarruri•Guerra y Revolucion en España Moscu 1966
7) الخطيب، إبراهيم ــ نقد الحركة الاصلاحية وأفقها الايديولوجي مجلة «أنفاس» يناير 1972
8) وثائق الاقامة العامة ــ مصلحة الأهالي ــ مدريد
9) Rezette (R)-les Partis Politiques Marocains - Armand Colin, Paris 1955
10) من تراث الطوبس ــ كتاب العلم ــ مطبعة الرسالة ــ الرباط
11) Villar (S) Idiologias Franquistas - Madrid 1977
12) Martin (M) El Colonialismo Español en MArruecos - Ruedo Ibérico - Paris 1973
13) الريحاني، أمين : المغرب الأقصى ــ دار الريحاني بيروت 1975
14) وثائق الاقامة العامة ــ مكتب مصلحة الأهالي ــ مدريد.
15) Julien (A) : Le Maroc Face aux Impérialismes - éd. J.A. Paris 1978
16) Colstov (M) Pravda 20/9/1936
17) Rezette (R). Les Partis Politiques Marocains - Armand Colin Paris 1955
18) Martin (M) El Colonialismo Español en Marruecos - Ruedo Ibérico- Paris 1973
19) الخطيب، إبراهيم ــ نقد الحركة الاصلاحية... أنفاس يناير 1972.
20) نفس المصدر.
21) أشفورد دوغلاس : التطورات السياسية في المملكة المغربية دار الكتاب ــ البيضاء 1964.
22) Rezette : Les Partis Politiques Marocains - A.Colin Paris - 1955
23) الطوبس : صور من حياته ــ جمعية الطالب المغربية ــ تطوان 1970
24) نفس المصدر السابق
25) Martin (M) El Colonialismo Español en Marruecos - R.I. Paris 1973

ــ جريدة حزب الاصلاح «الحرية» من سنة 1937 الى 1942
ــ G. Figueras - Marruecos 2de Edición 1955- Tetuan
ــ الأستاذ الطوبس : سلسلة رجالات المعهد الحر ــ تطوان 1972

تطرح هذه الدراسة مجموعة من الملاحظات التي ربما كانت محطّ خلاف بين المهتمين بنفس المنطقة والحقبة من تاريخ المغرب، لذلك تفتح المجال هنا واسعاً لكل ذي رأي مكمّل أو مخالف أو معارض، قصد استكشاف غوامض مرحلة مهمة من تاريخنا الحديث.

وننشر فيما يلي رأيا عبد المجيد بن جلون، وهو أستاذ مساعد بكلية الحقوق بالرباط. يحضر أطروحة حول : « الحركة الوطنية بشمال المغرب » (1930 ــ 1955) :

لحد الآن، لم تنل الحركة الوطنية المغربية، في المنطقة الاسبانية ــ سابقاً، الاهتمام الذي تستحقه من قبل الباحثين. لذلك ينبغي أن نحيي بحرارة كل مبادرة تهدف الى تحليل هذا الجانب أو ذاك من هذه المسألة الهامة، ومن ضمنها دراسة السيدين أبو رندة وسعود.

وبما أننا نحضر، نحن أنفسنا، أطروحة حول نفس الموضوع، فإن قراءة المقال أعلاه تدفعنا، على الفور، للاشارة الى عدم معرفتنا ببعض المبادىء الماركسية، الشيء الذي يعني، بالتالي، أننا سوف لن ننتقد كاتبينا على صعيد المعتقدات، وإنما سيتم ذلك، بالأولى، على صعيد الوقائع المعزّزة بالوثائق، من جهة، والتي استدعت، من جانبنا، العديد من التعليقات التي سوف لن نشير منها هنا سوى الى الأربعة التالية :

1) لعل اتصالات جرت بين الوطنيين المغاربة والرجعية الاسبانية بُعَيد الاعلان عن الجمهورية الاسبانية، ولعل تلك وافقت على مدّ المغاربة بمساعدة مالية. وعلى حد علمنا، فإن هذا التأكيد لا يستند الى أي أساس، بل من باب أولى ذكر أن صلات قد ربطت مع بعض عناصر اليسار الاسباني.

2) ان مفاوضات برشلونة لعام 1936، والتي أثارها صديقانا، قد وقعت ببضعة أسابيع عقب إعلان الحرب الأهلية الاسبانية، وكان ممثل الجانب المغربي فيها ليس الحركة الوطنية للمنطقة الاسبانية ولكن الحركة الوطنية للمنطقة الجنوبية : ج عمر بن عبد الجليل ومحمد بن الحسن الوزاني اللذان ذهبا فعلا الى العاصمة الكاطالانية لكي يعرضا على الجمهوريين الاسبان الصفقة التالية : انتفاضة مغربية ضد فرانكو، مقابل الاعلان عن استقلال المغرب الشمالي، وعلى عكس ما يؤكده كاتبانا فإن « المفاوضات » أخفقت لا بسبب الوطنيين المغاربة بالمنطقة الاسبانية الذين تخلوا عن مسؤوليتهم، ولكن، بالأحرى، بسبب رئيس المجلس الاسباني، السيد لارغوكاباييرو (L.CABALLERO) الذي رفض التصديق على الاتفاق الذي وقع عليه، من جهة، الممثلان المغربيان، وعدد من التنظيمات السياسية الاسبانية، من جهة ثانية.

3) لو أن « حزب الاصلاح الوطني » كان متهماً بالتعاون مع الاستعمار الاسباني، وهذا الأخير، بمقابل ذلك، يؤمن « المصالح الطبقية للبورجوازية التطوانية الممثلة في حزب الاصلاح » فإن التحالف بين الزعامتين، المغربية والاسبانية، سوف يدوم الى مالا نهاية له.

وعلى النقيض من ذلك، لم يكن للتحالف المذكور ــ إن كان ثمة تحالف بالفعل ــ سوى طابع تاكتيكي وظرفي : ففرانكو المحتاج الى بعض من الهدوء في مدن الشمال لكي يستطيع تجييش الجنود المغاربة الذين كان في مسيس الحاجة اليهم لمواصلة الحرب التي أعلنها ضد الجمهوريين، منح عددا من الحريات الى الأنتلجنسيا الحضرية المغربية.

يضاف الى ذلك أن هذا الوفاق لم يدم طويلا، وفي أوج « شهر عسلهما » لم يتوان الاسبان عن فرض الغرامات الثقيلة على الوطنيين المغاربة بسبب بعض المقالات الصحفية المصنفة على أنها تحريضية.

إن التعاون الذي يتحدث عنه كاتبانا ـــ ولنقل ذلك دون خوف من الكلمات ـــ كان نعمة حقيقية بالنسبة لوطنيي **الشمال** الذين كانت خيبتهم كبيرة جدا من الحكومات المتعاقبة لـ « الجمهورية الاسبانية » التي منحتهم من الحريات قدرا أقل من ذاك الذي منحتهم إياه السلطات الفرانكية.

وفعلا، فالفرانكيون سمحوا لهم بإنشاء حزب، وصحف، وبارسال طلبة الى الخارج الخ.

ولا نعتقد أننا نبالغ إذا قلنا أن « الحركة الوطنية المغربية بالمنطقة الشمالية (سابقاً) كانت أكثر وطنية حين تعاونت أكثر مع الاسبان ». فالفوائد المستخلصة من روح الوفاق المتبادل هذه بالنسبة لمجموع الحركة الوطنية المغربية كانت جد مهمة، وسوف لن نثقل على أنفسنا ـــ بسبب ضيق الحيز ـــ، لكن لنقل بأن تطوان كانت تلعب، الى حد ما، دور « مكبر الصوت » بالنسبة لكل المغرب، وخاصة في لحظة كان القمع فيها أشد ما يكون بجنوب البلاد.

إن هذا التعاون البارز الذي لم يستمر، علاوة على ذلك، طيلة فترة الحزب الأهلية الاسبانية، لم يكن في آخر المطاف سوى تقارب لحظي مع أضعف الحلقات الاستعمارية، الأجنبية بالمغرب.وأكيد أن بالامكان إثبات ـــ مثلما اقترح ذلك كاتبانا ـــ أن (ح.إ.و) قد شكل أداة من أدوات السياسة الفرانكية، من حيث أن حملاته ضد فرنسا ـــ وهي حملات كانت تؤججها إسبانيا، بداهة ـــ قد خدمت مصالح فرانكو.

لكن يبقى مع ذلك أن الحملة المضادة لفرنسا والتي خاضتها صحف الشمال ساعدت الحركة الوطنية المغربية طالما أن فرنسا كانت هي القوة الاستعمارية الرئيسية بالمغرب. وهنا ألا نجد هذا الوفاق ثانية ـــ الجدير ذكره حتى وان كان نسبيا ـــ بين المغاربة والاسبان في سنوات 1953 ـــ 1956، لكن، من يستطيع الحديث في هذه المرة عن « التعاون » بالمعنى القدحي للكلمة ؟

ان الاسبان قد أنعموا على بعض عناصر حزب الاصلاح الوطني بمنافع اقتصادية وهذا أمر معلوم من طرف العموم. فهل معنى ذلك أن هذه المنافع كانت الثمن الذي دفعه الاسبان لشراء صمت الوطنيين المغاربة بخصوص تجييش الجنود المغاربة من طرف السلطات الفرانكية ؟

وحتى لو افترضنا أن حزب الاصلاح الوطني كان يضم طهرانيين اتقياء، فهل كانت للوطنيين المغاربة، وهم على ضعفهم إذاك، الوسائل الكفيلة بمنع هذا التجييش ؟ وهل معنى هذا، مع ذلك، أن المصالح المادية كانت تقدَّمُ على المصلحة الوطنية ؟ لا نعتقد ذلك. فالاستعمار الاسباني الذي كان ـــ تبعاً لبعض الظروف ـــ فريدا من نوعه، ولّد حركة وطنية فريدة من نوعها أيضاً. فما أغربه من استعمار وما أغربها من حركة وطنية ! إلا أن الاستعمار الاسباني لم يكن أقل استعمارية ولا الحركة الوطنية أقل وطنية.

إننا لا نبرر قط الفساد الذي يحق وينبغي لنا استهجانه أخلاقيا، ولكننا نعتبر أن الحركة الوطنية، مادامت محترمة في بلد يرغب بحرارة في التحرر من الربق الأجنبي، فهي أبعد من أن تكون معتقداً مقدساً فوق كل الشبهات، وخاصة فوق كل إغراء، سواء أكان واعياً أم غير واع.

4) وأن يكون حزب الاصلاح الوطني حزباً فاشياً، فهذا أيضاً أمر نجد أنفسنا أبعد ما يكون عن الاتفاق مع صديقينا بخصوصه : فالطريس قد تحرك من باب التقليد للفاشية أكثر

مما تحرك بسبب ايمانه العميق بها، وحتى حين كان الأمر كذلك، فإن المعطيات الاجتماعية الاقتصادية لاسبانيا والمغرب كانت أبعد عن أن تكون متطابقة.

تصوّروا قائداً متحمساً لبلد مستعمر، هدفه المباشر هو تحسين الشروط الاجتماعية لبلاده بواسطة إصلاحات تدريجية، وغايته البعيدة، هي استقلال بلاده. تصوّروا أيضاً أن هذا القائد يعوم ايديولوجياً، وهنا، فهو يميل الى أخذ نموذجه ــ بانفعال، زعما ــ من هذا الايديولوجي أو ذاك إن تقليد القرد لا يجعل من المقلد قردا بالضرورة.

لاتزال هناك ملاحظات كثيرة ينبغي الادلاء بها، إلا أننا سنكتفي بهذه، بانتظار فرصة أخرى للتدخل في النقاش المفتوح حول الحركة الوطنية المغربية في المنطقة الاسبانية سابقاً.

عبد المجيد بن جلون

(مـــواقـــف)

للحريـــة ، والابـــداع ، والتغييـــر

المدير المسؤول : **علي أسبر**

المراسلات : «مواقف» ــ ص. ب. 8355 ــ 11 ــ بيروت ــ لبنان

الآداب

المدير المسؤول : د. سهيل ادريس .

صدرت منذ 1952 ، ومع ذلك فهي ما تزال حاضرة بيننا باختياراتها القومية ، وتوجهها الوحدوي .

ــ تقارير ومؤلفات تغطي الحركة الثقافية في العالم العربي.

ــ دراسات ــ نصوص قصصية وشعرية ــ

تباع في كل الاقطار العربية .